

بسم الله الرحمن الرحيم

ما وراء الطبيعة عند ديكارت و مدى تأثره بفلاسفة الاسلام

للدكتور عبد الرحمن شاه ولي

لست أهداف من هذا المقال الوجيز تقليل شأن هذا الفيلسوف الفرنسي العظيم كما يترشح ذلك من عنوان هذا المقال : بل كما اريده هو بيان و توضيح مدى تواصل حلقات الثقافة البشرية من ناحية ، و عظمة المعارف و الثقافة الاسلامية من ناحية أخرى ، حيث أن هؤلاء المفكرين العظام الذين عاشوا في أحضان أساجد الاسلام قد اثروا فيمن بعدهم من المفكرين رغم البعد الحائل بينهم من الزمان و المكان ، و رغم تباين الامزجة باختلاف الشعوب و الاقوام :

و ان التأثير و التاثر في الثقافة البشرية ليس أمرا غريبا ولا نادرا ، لأنها في الواقع على مر العصور حلقات متتابعة ، لا تنفصل السابقة منها عن اللاحقة بها ، بل كل تالية من تلك الحلقات المترابطة المتواصلة تتعلق بسالفتها تتعلق المعلول بعلة الناقصة بمعنى لولا السلم الاول او الحلقة الاولى لما وصلنا الى الثانية منها ، و من هنا يتحتم على انى باحث يتصدى لتوضيح فكرة او مذهب عقلى ان يذكر و لو باختصار تاريخ حياة صاحب الفكرة لتعيين زمان و مكانة تلك الفكرة في سلسلة الفكر الانساني ، لذلك نبدأ بتاريخ حياة ديكارت.

ولد هذا المفكر العظيم بتاريخ ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ م في بلدة لاهي

بفرنسا فى بيت أسرة صغيرة من الاشراف اذ كان أبوه مستشارا ببرلمان بريطانيا ، و جده طبيبا كما كان جده من جهة أمه حاكما لبواتيه .

ماتت ام ديكارت حينما كان عمره ثلاثة عشر شهرا لذا قامت جدته بتربيته ، و قد اظهر فيلسوفنا فى طفولته ذكاء نادرا ، فكان أبوه يسميه بالفيلسوف الصغير لكثرة اسئلته عما حوله و انعام فكره فيما يراه . تعلم ديكارت فى مدرسة لافيش — التى اسسها اليسوعيون سنة ١٦٠٣ م ثمانى سنوات العلوم و الفلسفة على النهج الرائج فى ذلك العصر، و من هنا كان يمدح تلك المدرسة و اساتذته فيها، و قد قال فى رسالة الى بعض أصدقائه : يجب ان ارجع ذلك الفضل الى أساتذتى فاقول : بانه ليس فى العالم مكان تعلم فيه الفلسفة خيرا مما تعلم فى مدرسة — لافيش —(١) . و رقم هذا المدح لتلك المدرسة فانه كان يشعر عند خروجه منها بأن المعارف التى تلقاها فى تلك المدرسة انما هى ذات صفات جزئية ناقصة لا انسجام بينها و لا فائدة منها ، و من ذلك انصرف عن حياته العلمية الى حياة اللهو و الفراغ ، غير أنه سرعان ما رجع الى الفكر و التأمل و اختار العزلة ليتسنى له فرصة البحث و الفكر فقضى سنوات فى حى منعزل من أحياء باريس و لاجل بناء المستقبل الباهر قد نصحه أبوه بالتطوع فى جيش هولاندا حيث كان يعتبر فى ذلك الوقت من أهم جيوش اوربا و ذلك بعد انتصاره على اسبانيا و من ذلك كان الشبان من ابناء النبلاء . يعتبرون هذا الجيش خير مدرسة حربية — فكانوا يلتحقون بهذا الجيش و يعدون عدتهم على نفقاتهم الخاصة ، و ديكارت قد تمكن من ذلك بما ورث من أمه و خالته من ثروة ، فسافر الى هولاندا للالتحاق بهذا الجيش و ذلك سنة ١٦١٨ م .

(١) لاحظ ص ٢٥ من ديكارت للدكتور عثمان أمين -

و التقى ديكارت فى تلك الفترة بالطبيب الهولندى اسحاق بيكمن ، و قد كان ينوى السفر الى فرنسا فارتاح الى هذا اللقاء بديكارت ، و بما أن هذا الطبيب كان متبحرا فى العلوم لذلك حث ديكارت و رغبه فى دراسة الطبيعة و الرياضيات و معرفة الروابط بينهما ، و قد اعترف ديكارت بما له عليه من فضل ، و من هنا كان يصف نفسه بانه كان نائما فاستيقظه هذا الطبيب ، و من ذلك اهدى اليه أول مؤلفه فى الموسيقى -

غادر ديكارت هولندا سنة ١٦١٩م ذاهبا الى المانيا ، فاعتزل هناك فى غرفة وافته كان يقضى فيها اليوم كله فى وحدة منعزلة منصرفا الى التفكير(١) - و جعل هناك يقضى معظم اوقاته من ايامه و لياليه فى التأمل و النظر - و لما أسعن فى تلك التأملات و حصل منها على نتائج مرضية ، و بذلك اهتدى الى كثير من القواعد العلمية الهامة المحددة ، خطر له أن يقوم بمشروع هائل و هو تحديد قانون التفكير البشرى تحديدا قاطعا لا يحتمل الريبة و التردد و لاسيما و انه كان قد اهتدى الى وسيلة هذا التحديد ، و أدواته الضرورية ، و تلك القواعد هى منهجه اليقين الذى كان اساس كل فلسفته(٢) -

(الحياة العقلية فى عصر ديكارت)

كانت النزاعات الالحادية فى تلك الفترة فى فرنسا ذائعة ، لذا كانت للشعراء الملحنين و الاباحيين شهرة و منزلة لدى شباب عصره ، و مقاومتهم من جانب رجال الدين و البرلمان كانت تنقص شيئا من اثرهم و رسوخهم فى الشعب :

(١) المقال عن المنهج -

(٢) لاحظ المذاهب الفلسفية العظمى للدكتور محمد غلاب ص ٦٣

بل كلما قادموهم بالعنف ازداد اقبال الناس عليهم، و لم يكن ديكارت من الشبان الملحدين المعاصرين له، بل انه عارض الالحاد و حاربه محاربة عنيفة و جريئة : و كان عزمه الاكيد على معارضة الالحاد من الاسباب التى شغلته بالكتابة - و تصور لنا بوضوح الحياة العقلية فى ذلك العصر قصة ثلاثة من العلماء الذين عقدوا اجتماعا كبيرا فى ردهة من أجمل ردهات باريس و شهد ذلك الاجتماع نحو الالف، و لكنه قبل بداية الكلام أمرهم الو الامر باخلاء المكان و انتشار المجتمعين و انصراف الحاضرين .

ثم اصدر البرلمان الفرنسى بعد ذلك امرا باعدام مقالاتهم التى كانت ستلقى على الحاضرين فى الاجتماع، كما امر البرلمان بمغادرة هولاء الثلاثة باريس فى اربع و عشرين ساعة، و امرو بعدم الاقامة و السكن فى اى بلد يكون فى نطاق اختصاصات محكمة التفتيش التى حكمت عليهم، و حرمت عليهم تعليم الفلسفة فى اى جامعة من الجامعات ، وهددت تلك المحكمة كل من يجعل تلك المقالات موضوع المناقشة او ينشرها او يتجر فيها باى شكل، و لم يكن هذا التهديد بالغرامة المالية او الحبس فحسب بل كان بالعقاب البدنى لكل من يرتكب واحدة من تلك الجرائم مهما كان مركزه و مكانته فى الدولة .

و الى جانب ذلك نص البرلمان الفرنسى فى قراره على تحريم اذاعة الآراء التى كانت تخالف آراء المؤلفين القدماء الذين تقرهم الكنيسة و لاسيما ارسطو طاليس، و ان كل من يرتكب العصيان من هذا القرار يحكم عليه بالاعدام (١) - و فى مثل هذا الجو المظلم الكئيب نشأ ديكارت حيث كان الغرب لا يزال يعانى

(١) لاحظ مقدمة مقال عن المنهج -

من ظلام الجهل و استبداد رجال الكنيسة المتعصبين الذين نصبوا العداة لكل فكر عقلى صادرين احكامهم القاسية على كل مفكر دون أن يحاولوا تميز المحق من المبطل، و ذلك مثلما فعلوا بجاليليو وغيره من المفكرين، عاش ديكارت فى ذلك العصر و علم بكل هذه المهيجات الجاهلية و لذلك حجب الابتعاد عن فرنسا كي لا يكون عرضة للمحنة و المأساة مثل سالفه ، و لى لا يقوم بالقضاء على افكار منتجاته بمساعدته رجال الحكم الذين يدينون لهم و يمثلون او امر هم فى كل صغيرة و كبيرة ، و ذلك مثل ما فعلوا بمنتجات من قبله حيث امروا باحراق كتبهم و منعوا الناس من قرائتها و حكموا باعدام كل من ينشرها .

نستطيع أن نفهم من هذه الظروف المحيطة بهذا لفيلسو فالفرنسى حيث كانت لا تشجع على اعمال الفكر و النظر و خاصة فى معضلات ما وراء الطبيعة لانها تتصل مباشرة بقضايا الدين و نظريات الكنيسة و هذا مما يدعو الى الياس و عدم روية بصيص من النور فى ذلك الجو القائم .

و اتفق ان حضر ديكارت الى اجتماع عند سفير البابا فى باريس، فقام أحد العلماء ببسط آرائه فى ذلك الاجتماع فاعجب به الحاضرون ما عدا ديكارت لذلك تلقى دعوة لان يظهر رأيه فى تلك القضايا التى تكلم فيها العالم المحاضر قبله، فحضر ديكارت اثبت عكس ما قاله العالم فى خطابه بحجج قوية، فاعجب به الحاضرون، واحس واحد منهم الذى كان ذا شان انه لا يتوسم فيه سمات المجدد فحسب بل يرى فيه صفات المصلح الاجتماعى أيضا. لذلك طلب منه الفراغ لاصلاح الفلسفة قائلا له اننى اعقد عليك آملا فى النهضة بالفلسفة الحديثة و الى جانب ذلك لاحظ ديكارت بأن كثيرا من معاصريه يعتقدون عليه مثل هذه الآسال ، و فى ذلك وجد بعض التشجيع على عزم كتابة مذهبه فى ماوراء الطبيعة، و كان يعتقد

بأن تدوين مذهبه فى الطبيعيات لن يكلفه بعد ذلك الا بضعة شهور و لذلك قدم تدوين مذهبه فى الالهيات على الطبيعيات.

و من ذلك يتبين لنا بوضوح مدى أهمية ماوراء الطبيعة فى فلسفته، و رغم انه وجد التشجيع من بعض معاصريه فانه لم يتخلص ايضا من اضطهاد رجال الكنيسة، فقد ثارت الكنيسة ضد رسالته "العالم"، التى بدأ فى كتابتها فى آخر سنة ١٦٢٩ م.

و فى ٢٣ من يونيه سنة ١٦٣٣ م أدانت محكمة التفتيش فى روما - جاليليه - لا صداره كتابه المشهور عن مذهبه بطليموس و كوبرنيك فى سنة ١٦٣٢ م و ذلك بعد أن احس السلطة الدينية بالخطر الذى كان يهددها من نقض القول القديم بأن الارض ثابتة وسط العالم وان الفلك يدور حولها. و قد علم ديكارت بهذا الحكم من جانب تلك المحكمة لذا أراد أن يرسل مخطوط رسالته "العالم"، التى اشتغل فيها من سنة ١٦٢٩ م الى سنة ١٦٣٣ م الى صديقه من رجال الدين الآب مرسن، و حينما استلم مخطوط هذه الرسالة بلغ به الفزع سبلغا كبيرا، لان ديكارت صرح فيها بدورة الارض.

و جاء فى خطاب لديكارت الى الآب مرسن الذى ارسله اليه فى ٢٢ من يوليه سنة ١٦٣٣ م: لقد ادهشنى هذا الى حد كدت معه أن اصمم على احراق اوراقى او على ألا اظهرها لاحد على الاقل، و انى اعترف انه اذا كانت حركة الارض باطلة فان كل اصول فلسفتى باطلة كذلك، اذ أن هذه الاصول تثبتتها اثباتا قاطعا و واضحا و انها من الاتصال بكل أجزاء رسالتي بحيث لا أستطيع فعلها عنها دون أن أصيب كل ما يبقى بنقص. و لكنى لما كنت لا أريد أن يصدر عنى قول توجد فيه كلمة واحدة لا تقرها الكنيسة، فانى أفضل ان الغى هذا

القول على أن اظهره مشوها (١) .

هكذا كان الفكر مهددا من سلطة الكنيسة التي كانت لها السيطرة المطلقة،
و هكذا عاش المفكرون مقيدون في سلاسل الظلم و الجهل في ذلك العصر
المظلم فما كان باستطاعة اى مفكر اظهار فكرة تعارضها الكنيسة مهما كانت
مبرهنة بالادلة القاطعة، او بلغت في وضوحها مبلغ الشمس في الظهيرة، و هذا مما
ارغم ديكارت على ان يحذف من رسالته "العالم"، الجزء الذى يثبت فيه حركة
الارض و هذا ما كان يرضى الكنيسة فاخفى هذا الجزء منها حسب شعاره المشهور:
"عاش سعيدا من احسن فى الاخفاء"، .

و من هذا ليس لا حد ان يتهم ديكارت بالجبين لانه كان متاكدا من سيطرة
الكنيسة و تنفيذ اوامرها القاسية فى كثير من المفكرين قبل ديكارت ، فقد احرق
جيور دانور برونو سنة ١٦٠٠ م ، و اضطر جاليليو الى الرجوع عن افكاره و صودرت
كتبه و بذلك صار اعمى لشدة حزنه على ذلك. و هكذا عاش الغرب فى الظلام
الى عصر ديكارت و فى عصره ايضا.

(١) لا حظ مقدمة المقال عن المنهج -